تعرقل النمو البشري ، وسوف يبدو الاقتصاديون وكأنهم المرجع النهائي لكل شيء ، ولما كان من الواضح أن تحرير الإنسان من مذهب المادية سوف يقلب أغلب جوانب حياتنا ، فإن المجتمع العصري سوف يعارض بكل قوته هذا التقدم في آرائنا . (٥٠)

ثم يقول : مهما يكن ، يجب أن نتخذ دواعي الحيطة حتى لا يحدث فشل المادة رد فعل روحي ، إذ لما كانت التكنولوجيا وعبادة المادة لم يصيبا نجاحا ، فقد يستشعر الناس إغراء عظيما لاختيار الطقوس المضادة ، طقوس العقل ، ولن تكون رئاسة السيكولوجيا أقل خطرا من رئاسة الفسيولوجيا والطبيعة والكيمياء والعلاج الذي يخلص إليه وينادي به : إن العلاج الوحيد الممكن لهذا الشر المستطير هو معرفة أكثر عمقا بأنفسنا ، فمثل هذه المعرفة ستمكننا من أن نفهم ما هي العمليات الميكانيكية التي تؤثر بها الحياة العصرية على وجداننا وجسمنا ، وهكذا سوف نتعلم كيف نكيف أنفسنا بالنسبة للظروف المحيطة بنا وكيف نغيرها ، إذ لم يعد هناك مفر من أحداث ثورة فيها ، ولئن استطاع العلم ـ علم الإنسان ـ أن يلقي الضوء على طبيعتنا الحقة وإمكانياتنا والطريقة التي تمكننا من تحقيق هذه الإمكانيات ، فإنه سيمدنا بالإيضاح الصحيح لما يطرأ علينا من ضعف فسيولوجي ، كذا لأمراضنا الأدبية والعقلية ، إننا لا نملك وسيلة أخرى لمعرفة القواعد التي لا تلين لوجوه نشاطنا العضوي والروحي ، وتمييز ما هو محظور مما هو مباح ، وإدراك أننا لسنا أحرارا لنعدل في بيئتنا وفي أنفسنا تبعا لأهوائنا ، وما دامت الأحوال الطبيعية للحياة قد حطمتها المدنية العصرية فقد أصبح " علم الإنسان " أكثر العلوم ضرورة ."(٥١)

(٥٠) الإنسان ذلك المجهول ص٣٢٩-٣٣١ بتصرف .
(٥١) المرجع السابق ص٤٤-٤٥ .

ونقول له : لقد جربت علم الإنسان في كافة تخصصاته وعامة مناحيه ، وبدا لك ولسائر الإنسانية فشل العلم المادي وحده لتحقيق استقرار الإنسانية فكيف وبعد هذه الدراسة المتعمقة التي قمت بها في كتابك أن تدعي أن العلم الإنساني ضرورة للحياة الإنسانية ؟!

إن هذا الاقتراح ، واعتباره الحل الوحيد الممكن لمشكلة بقاء البشرية محتفظة بإنسانيتها أو انحدارها منها وتراجعها إلى البربرية والوحشية ، اعتباره أن الحل الوحيد الممكن هو مزيد من علوم الإنسان هو ظاهرة تلفت النظر بشدة : إذ لا يمكن للعلم الإنساني ــ مهما بلغ شأوه وارتقى كعبه ــ أن يقنن منهاج حياة للبشرية دون مدد من كلمة الوحي الإلهي ، فالأمر لا يتعلق بالماديات وحدها في تسيير عجلة الحياة دون وازع ديني وضابط إلهي ، والحاكمية فيها تكون لدعوة الحق وكلمتها ، ويوم تحرر البشرية من عبوديتها للأهواء والطواغيت ، وتعض على كلمة الوحي الإلهي بالنواجذ ، وتتمسك بها وتجعلها رباناً لسفينة الحياة في هذا الوجود ستتخلص من شقائها وتعاستها إلى سكينة وطمأنينة وسعادة في الدنيا والآخرة .

هذا ولم يكن **ألكسيس كاريل** وحده الذي يعبر عن الحضارة المادية وانحطاطها ، بل سأذكر بعضاً من الشهادات المنصفة التي تؤكد عجز الحضارة الوضعية عن تقديم منهاج حياة لواقع الأحياء .

** يرى المفكر " **لاموني** " : بأن الجنس البشري بكامله يمشي بخطى حتمية إلى الهلاك إنه في النزع الأخير ، كذلك الإنسان الجريح المسكين الذي لا يُرجى له شفاء فكثرة الأخطاء في حضارتنا ــ المادية ــ تجرها إلى الهلاك .

ويقول برتراند رسل : " إن حيوانات عالمنا يغمرها السرور والفرح على حين كان الناس أجدر من الحيوان بهذه السعادة ولكنهم محرومون من نعمتها في العالم الحديث ، واليوم أصبح من المستحيل الحصول على هذه النعمة والسعادة .

ويقول ماكينل : إن الحضارة الغربية في الطور الأخير من أطوار حياتها أشبه بالوحش الذي بلغت شراسته النهاية في انتهاكه لكل ما هو معنوي ، وبلغ اعتداؤه على تراث السلف وعلى كل مقدس ومحرم قمته ، ثم نشب مخالبه في أمعائه فانتزعها وأخذ يمزقها ويلوكها بين فكيه بمنتهى الغيظ والتشفي .

ويقول آرثر شوبنهاور :إن الحياة المادية تتأرجح من اليمين إلى اليسار ، من الألم إلى الملل ، وليستغيث هذا الغرب المسكين بإلهه إذا شاء ، إنه سيظل فريسة مصيره ، فالقدر لا يرحم . (٥٢)

ويقول الفيلسوف الألماني أشفيتر في صدر كتابه " فلسفة الحضارة " : نحن نعيش اليوم في ظل انهيار الحضارة المادية ، ... إن حماستنا للتقدم في المعرفة وأسباب القوة التي بلغناها جعلتنا نتصور الحضارة المادية تصورا معيبا ، فإننا نعاني في تقدير إنجازاتنا المادية ، ولا نقدر أهمية العنصر الروحي في الحياة حق قدره . " (٥٣)

إنها صيحات الخطر منذرة بسوء مصير البشرية في ظل هذه الحضارة المادية والوضعية الخاوية من الإيمان خواءها من الروح الإنساني ، ومن ثم بدا انهيار الحضارة الغربية في كافة ميادينها وفشلها في سائر ما قننت

(٥٢) هذه النقول من : نظريات الغرب وحضارته في ميزان الإسلام ـ ماهر خليل ص١٤٤-١٤٥.
(٥٣) المرأة والأسرة في الحضارة الغربية ـ محمد عطية خميس ص٩١-٩٢ .

سواء أكان ذلك في الناحية العقدية أم في كافة النواحي الواقعية للحياة أو الأحياء أم في معاييرها ومضامينها .

* **ففي الميدان العقدي** : اضطرب الفكر الغربي اضطرابا بالغا كان لــه أكبر الأثر في فساد كافة المنــاحي العمليــة والعلميــة لواقــع الإنســان الغربي.(٥٤)

* **وفي المعايير والموازين** : يعتمد الفكر الإنساني ــ أقصد من حاد عــن دين الفطرة ــ على سند وضعي جهل كنه نفسه ، فكيف يستطيع أن يقنــن دستورا لواقع الكون وواقع الحياة وواقع الأحياء ؟!!

* **وفي الوجهة والغاية** : لأن الحضارة الغربية لا تبغي إلا واقع الحيــاة الدنيا فحسب دون النظر إلى الحياة الأخرى ، ومن ثم طغــت المطــالب المادية في حياتهم الدنيا على المطالب الروحية ففقدت رادع الإيمان بــالله ﷻ والقيم الأخلاقية أدى هذا إلى انهيارها في ساحــة الحيــاة ، وهنــاك نماذج من الفشل الذريع الذي منيت به الحضارة الغربية .

* **وفي مجال الانتماء** : فشلت الإقليمية والقومية والعنصرية بمفاهيمها .

* **وفي ميدان الاقتصاد** : فشــلت الرأســمالية والماركســية والربويــة بمضامينها.

* **وفي مجال النفس** : فشلت الفرويدية بنظرياتها .

* **وفي مجال الاجتماع** : فشلت نظرية دور كايم في العلوم الاجتماعية .

* **وفي مجال السياسة**: فشلت النظم الوضعية والديمقراطية والدكتاتورية.

* **وفي مجال العلم** : فشلت نظرية إخضاع العلوم للسيطرة العالمية .

---

(٥٤) أنظر لمزيد من الاستفادة : اضطراب الفكر الديني في أوربا ــ مظاهره ــ بواعثه ــ آثاره ــ د٠مرسي شعبان السويدي ــ حولية كلية أصول الدين بالمنوفية ــ العدد السادس عشر ١٩٩٦م .

* وفي مجال الحضارة : فشلت فكرة الاستعلاء بالعنصر وحضارة الرجل الأبيض .

* وفي مجال المرأة : فشلت فكرة هدم الأسرة وإخراج المرأة إلى البارات والمراقص ، وجعلها أداة للتحلل والإباحية .

* وفي مجال البيولوجيا : فشلت نظرة التطور الدارونية .

* وفي مجال الفلسفة : فشلت نظرية نيتشه في قتل الضعفاء وسيطرة الأقوياء والإنسان الأعلى .

* وفي مجال الأدب : فشلت نظرية إخضاع العمل الأدبي لنظرية أن الإنسان تحكمه غريزة الجنس والطعام .

* وفي المجال الأخلاقي : فشلت النظريات الوضعية في تقنينها .

* وفي مجال الإنسانيات : فشلت محاولة إخضاع الإنسانيات لنتاج العقل البشري وحده ، إذ العقل البشري وحده لا يستطيع أن يقنن نظما لسائر العلوم الإنسانية دون مرشد وتوجيه وسند إلهي ... " (٥٥)

وبذلك انتهى العصر الذي يسود فيه الرجل الأبيض ؛ لأن حضارته قد استنفدت أغراضها المحدودة ، ولم يعد ما تعطيه للبشرية من تصورات ومفاهيم ومبادئ وقيم تصلح لقيادة الإنسانية وتسمح لها بالنمو والترقي الحضاري فأصيبت بالعقم ــ أو كادت ــ بعد ما ولدته في سائر ما قننته من أنظمة وقوانين حسبتها ــ زورا وبهتانا ــ أنها نظريات وقوانين حضارية ، وكانت موقوتة ونسبية ؛ لأنها في الأصل قيم مبتوتة ، نبات شيطاني لا جذور له في أعماق الفطرة الإنسانية ، وليس له سند إلهي

(٥٥) المرأة في إطار الأصالة ــ أنور الجندي ص٢٩-٣٠ بتصرف ــ دار الصحوة ١٩٧٧م .

يعول عليه ، ومن ثم كانت الحضارات البشرية الزائفة معولا من معاول الهدم لا أداة للبناء الحضاري المتكامل ، ومعادية للدين ، ودعائمها مناقضة لفطرة الحياة وللأحياء ، وحين تتناقض الحضارة الإنسانية مع واقع الإنسان ، فالنتيجة الحتمية ــ لا محالة ــ بعد فترة ــ تطول أو تقصر ــ هي صراع الإنسان مع الحضارة والواقع التاريخي ، يسجل هذه الحقيقة اتباعها ، فيشهدون بانتحار الحضارة والإنسان ذاته ، ولا يبقى إلا صوت الفطرة التي فطر الله ﷻ الناس عليها .

يقول برتراند رسل : لقد انتهى العصر الذي يسود فيه الرجل الأبيض ، وبقاء تلك السيادة إلى الأبد ليس قانونا من قوانين الطبيعة ، فبريق الحضارة المادية الزائفة لا يجوز أن يغش أبصارنا عن حقيقة الشقاء الذي تعانيه البشرية في ظلها ، ولا يخدعنا ــ أيضا ــ تقدم أهل هذه الحضارات ونموها المادي والتقني ، فإن أشياعها يعيشون في خواء يهدد نمو إنسانيتهم وحضارتهم إلى الهاوية .

* فقد انحدر الإنسان في ظل هذه الحضارة المادية في تصوره للقيم الإنسانية فضلا عن صفاته الإنسانية .

* وانحدر حيث رأيناه وقودا للآلهة أو عبدا تابعا ذليلا من توابعها .

* وانحدر حيث رأيناه ينحط في قيمه وأخلاقه وتصوره .

* وانحدر حيث رأيناه يهبط في علاقاته الجنسية إلى أدنأ من درك البهيمة.

* وانحدر حيث رأينا وظائفه الأساسية تعطل وتزوي وتتراجع .

* وانحدر حيث رأيناه يشقى ويقلق ويتحير ويعاني من شتى الأمـــراض العصبية والنفسية وغيرها .

* وانحدر حيث رأيناه هاربا من نفسه ومن المخاوف والقلاقل التي تلفــه بها الحضارة المادية الزائفة .

* وانحدر حيث رأيناه هائما على وجهه ، يقتل سآمته وملله بما يقتل بــه روحه وجسمه وأعصابه من المكيفات والخمور وغيرها .

ولقد انتهى دور الرجل الأبيض سواء أكان روسيا أم أمريكيا أم إنجليزيــا أم فرنسيا أم أيا كانت جنسيته .

انتهى دوره لأنه انخدع ببيرق حضارة زائفة صرعته ، فأودت بــه فــي النهاية إلى الانتحار .[٥٦]

هذه إلمامة موجزة لطبيعة الحضارات المادية البشرية المزعومة ، وأهم ملامحها ومظاهرها ، ثم معيارها التي تنبثق منـــه وتعتمـد عليـه فـي مسيرتها العملية ، ثم عرضنا لذاتية هذه الحضارات البشرية ــ الزائفة ــ من خلال أتباعها وأشياعها ، وقد اتضح جليا لكل ذي بصيرة من علم أنه لا يمكن أن يعول على هذه الحضارات أيا كان مسماها في قيادة البشــرية ولواقع الحياة والأحياء ؛ لأنها ترتكز على خيالات بشرية وأهواء إنسانية، وليس لها أساس إلهي ولا دعامة ربانية تنبثق منها ، الأمر الذي يدفعنـــا إلى بيان الحضارة الحقة والجديرة بقيادة عجلة الحياة والأحياء في النقطـة التالية ، فأقول وبالله التوفيق :-

(٥٦) أنظر : المستقبل لهذا الدين ــ سيد قطب ص٤٧-٥١ بتصرف .

خامساً : مفهوم الحضارة في دعوة الحق .

لقد غلب على استعمال كلمة الحضارة أن تطلق على الجانب المادي والتنظيمي من الحياة ، وليس ذلك بعيداً عن المعنى اللغوي على أي حال، فالحضارة هي فعل أهل الحضر ، مقابل البداوة التي هي شأن أهل البادية، ودعوة الحق قد أنشأت مفاهيم ومصطلحات خاصة ، تخصص بها المصطلح اللغوي وتحدده .

فالصلاة في اللغة : الدعاء ، ولكنها في المصطلح الدعوي الإسلامي هي: تلك الأعمال الخاصة المعروفة ، التي تشمل الدعاء فيما تشمل ، ولكنه دعاء ذو نسق خاص محدد .

والزكاة في اللغة : الطهر والنماء ، ولكنها في المصطلح الإسلامي هي : ذلك المقدار من المال الذي ينفق بصورته المعروفة في كتب الفقه الإسلامي .

والدين في اللغة : هو كل ما يدين به الإنسان أو يعتقده ، أو يتحاكم به أو إليه ، ولكنه في المصطلح الإسلامي : ذلك الدين المحدد المنزل من عند الله ﷻ .

كذلك في مصطلح الحضارة ، فهي في اللغة : فعل أهل الحضر ، ولكنها في المصطلح الإسلامي هي : عمارة الأرض بمقتضى المنهج الرباني ، فيدخل في ذلك الجوانب المادية والتنظيمية ، وتدخل فيه القيم التي يحملها هذا الدين الإلهي غير منفصلة هذه عن تلك ، أي أنها تشمل الأمرين اللذين فرقت بينهما الجاهلية المعاصرة ، فسمت أحدهما : ثقافة ، وخصته بالقيم والأفكار والمعتقدات ، وسمت الآخر : حضارة ، وخصصته بالجانب المادي والتنظيمي .

والجاهلية الحديثة إذ تفعل ذلك تحدث تفرقة لا وجود لها في عالم الواقع ، فليست هناك عمارة مادية أو تنظيمية غير مرتبطة بقيم معينة في حياة

الناس متأثرة بها ومؤثرة فيها كذلك فإن القيم لا تعيش في فـــراغ ، إنمـــا تعيش وتبرز في كيان مادي وتنظيمي ، فالتفرقة بيـــن الأمريـــن تفرقـــة نظرية أكثر منها واقعية ، إنما تستسيغها تلك الجاهلية ؛ لأنها درجت على التفرقة بين النظرية والتطبيق ، فوضعت الصورة المثالية في النظريـــة ، وتركت التطبيق يمثل الواقع ، ولم تر حرجاً فـــي أن يخـــالف التطبيـــق النظرية ويبتعد عنها .

ودعوة الحق ليست ملزمة بمجاراة المفاهيم الجاهلية في مصطلحاتـــــها ، إنما تقول إن الحضارة هي الجانب المعنوي الذي يحمل القيم ، والجـــانب المادي والتنظيمي على حد سواء ، ومن ثم فالحضـــارة الإسلامية ذات قيمة ثابتة ، وملامح وأنماط مادية وتنظيمية صالحة لكل زمان ومكـــان ، ولابد من الارتباط القائم بين الجانب المعنوي والمادي ، فالهيكل البنـــائي الحضاري لا يقوم ولا يُقوّم إلا بمراعاة الأمرين معاً ، وليـــس بالجـــانب المادي التنظيمي وحده ، بل يكون تقويمه بمقياس القيم هو المقـــدم وهـــو المعتبر لسبب واقعي ، هو أن الإنسان يستطيع أن يعيـــش وأن يمـــارس كيانه الإنساني على المستوى الأعلى بأقل قدر مـــــن الأشـــكال الماديـــة والتنظيمية ، ولا يمكن أن يمارس الإنسان هذه المهمة بلا قيـــم وبـــدون معايير إلهية يحتكم إليها مهما بلغ شـــأواً عظيمـــاً فـــي تقدمـــه المـــادي والتنظيمي ، ومن ثم بدا الفارق بين المفهوم الإسلامي لكنـــه الحضـــارة وبين المفاهيم الجاهلية لها ، ومن خلال ما عرضنـــا تمـــيزت الوجهـــة الإسلامية لذاتية الحضارة وطبيعتها عن غيرها من سائر الرؤى البشـــرية لها ، ذلك أن الحضارة الإسلامية تُعنى بضرورة العناية بالجوانب الماديـــة والمعنوية التي تخدم صالح البشرية في واقعها الكوني والحيـــاتي ، أمـــا

النظريات البشرية فهي وإن عنيت بالجانب المادي والتنظيمي ، إلا أنـــها تعرت من القيم وتنكرت لها ، بل وجحدت خالقها ، ومـــن هنــا سُـميت حضارتها بالحضارة المادية الهابطة ، أما الحضارة الحقة فهي التي دعت إليها دعوة الحق (الإسلام) وحثت عليها ، ومن ثم أمكننا القـــول بـأن دعوة الحق هي الحضارة ، وهي التي تمثل الــهيكل البنــائي للحضـــارة السوية ، إنها حضارة القيم العليا والمبادئ السامية ، ويتجلى ذلـــك مـن خلال التأمل في كلمة الوحي الإلهي ، والتي عنيت في سائر ما شـــرعت وكلفت بضرورة العناية بالجانب المادي والمعنوي فـــي طبيعـــة الكيـان الإنساني بلا تعارض ولا تناقض ، بل على تـــوازن واتسـاق ، وهــذا التكامل في الفطرة وفي الحياة الواقعية علامة صحية للإنسان الذي خلقــه الله من قبضة من طين الأرض ونفخة من روح الله تعالى ، قال الله ﷻ :

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْـــتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ ص٧١-٧٢ .

ودعوة الحق ضرورة فطرية وهي دين الفطرة قد دعـــت إلـــى إشباع الجانبين معاً ، سواء فيما يتعلق بالروح والجســد أو بالدنيــا والآخــرة :

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ... ﴾ البقرة ١١٠ .

﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا .. ﴾ الأعراف ٣١ .

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ.. ﴾ القصص ٧٧ .

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ . قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنـــدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا... ﴾ آل عمران ١٤-١٥.

فكان قيام الجانب المادي التنظيمي للحضارة ــ كما أشارت الآية ــ بعد استكمال الجانب المعنوي القائم على القيم والمبادئ السامية أمراً طبيعياً في حياة أمة دعوة الحق ، ومن ثم كانت دعوة الحق الحضارية تتميز بالأصالة والمعاصرة ، أما أصالتها فتنبع من معيارها الإلهي ، والتي لا تمنع ــ أيضاً ــ الاستفادة من ثمار العلم ومنافع الحضارة المادية ، ولكنها تمنع الذوبان وفقدان الشخصية بتأثير النقل والتبعية المجردة ، وأما معاصرتها فهي الدعوة الصالحة لكل زمان ومكان ، والتي لا تستغني حياة البشرية بدونها ، إذ هي في أمس الحاجة إليها وضرورة لازمة لها كي تكون لها منهاج حياة ، كما سيتضح ذلك جلياً من خلال عرضنا لعناصر هذا البحث ...

ولئن كانت الحضارة الوضعية هي نتاج التقدم العلمي بفروعه المختلفة في ميادين الهندسة والصناعات واستخدام الآلات لخدمة الإنسان ورفاهيته ولإقامة المدن وتمهيد الطرق والاستخدام الأمثل لظاهر الأرض بزراعتها، وباطنها باستخراج المعادن والبترول وغيره ، فكل ذلك يعبر عن جانب واحد من التصور الإسلامي للحضارة ؛ لأن كلمة الوحي الإلهي قد أجلت هذا التصور في تسخير كل ما في أرجاء الكون للإنسان، ويبقى العنصر الروحي من أهم عناصر الحضارة الإسلامية ، وما يتضمنه من عقائد وقيم وتعريف الإنسان بخالقه والخضوع له ، وتنظيم سلوكه وأخلاقه وفق ما جاء في دعوة الحق ، ومن هنا كانت الحضارة التي ترعرعت في كنف الدعوة الإلهية هي أرقى حضارة عرفها الإنسان ولا غنى للبشرية عنها .

سادساً : طبيعة حضارة دعوة الحق .

لقد كانت البشرية قبل بعثة النبي محمد ﷺ تتيه في ليل حـــالك ، وظـــلام دامس ، ولم يكن معقولاً أن تسدل ستائر الظلام على الكون فتلف الحيـــاة والأحياء أكثر مما وصلت إليه في الجاهلية العمياء ، والتي سبقت بعثـــة النبي ﷺ ونزول كلمة الوحي الإلهي .

ولم يكن معقولاً أن تتقلص إنسانية البشر وتنكمش كما تقلصت وانكمشـت في تلك الفترة الدامسة والعابسة ــ وكذا الشأن في جاهلية القرن العشرين ــ كما لم يكن مستساغاً أن ينطمس نور الفطرة ويختفي وهجـــها المشـــع وتتراكم عليها مخلفات القرون البالية وتقاليد البيئـــات الســـاقطة وأوزار المذاهب الأرضية فتحول العالم ــ الذي حاد عن هدى كلمة الوحي الإلهي ــ إلى فساد ، وأسلم زمامه للشيطان يقود مسيرته ويضلل خطاه ، فكانت كلمة الوحي الإلهي هي النور الذي أضاء الكون بأسره وكشف للإنســانية معالم الطريق السوي فأخرجت البشرية من الجهل والكفر إلى نور العلـــم والإيمان وكانت دعوة الإسلام منارة تضيء في ظلام الحياة التي عمـــها الفسوق وصدها الظلم وأوهنها الطغيان ومزقها الفساد ولفها الظلام ، فهي مرفأ الأمن كلما اعتكرت الظلمات وطريـــق العـــودة للكرامـــة والأمـــن والإيمان ، قال الله ﷻ ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَـــا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ التوبة ١٢٨ .

ففي هذه الآية إيحاءات تثبت زمام الحضارة وهي :

أولاً : قوله ﷻ ﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ** ﴾ فيه تكريم للإنسانية ورعاية لحقها فـــي الهداية بعد أن عبثت في الأرض فساداً ، داعياً إلى رشدها وكرامتـــها ، باذلاً أقصى الجهد ليحفظ عليها قيمتها ؛ كيلا تتبدد في ظلام الجـــهل ، أو تضيع في ركام الجاهلية ، أو تتلاشى في ظلال البغي والطغيان .

فهو ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ قد جاء إلى الإنسانية المعذبة على قدر وموعد دون أن تجيء هي ــ الإنسانية ــ إليه ، نعم جاءها رسولاً من رب العالمين ، يحقق لها من وسائل العيش الكريم ، ودواعي الأمن والسلام ومقتضيات الكرامة والعزة ما هي في أمس الحاجة إليه ، جاءتها الهداية الراشدة بالمنهج القويم من لدن رب العالمين ، فأي قيمة للإنسان أغلى من تلك القيمة ، تجيئه الرسالة الكريمة ساعية إليه لتبحث عن مواطن الخلل في كيانه وفي العالم من حوله فتصلها بيد الله ومنهج القرآن ودعوة الحق ، وتلك هي أسمى مظاهر الاعتزاز ، ومن هنا تبرز القيمة العليا للبشرية ، وأنها كريمة على الله لا يجوز أن تستذل بالنظم الوضعية أو تستعبد بالبطش أو تزدرى بالتحقير ، وأن أية حضارة لا تحترم خصائص الإنسان لا يمكن أن تخلد ولا أن تعمر ؛ لأن الإنسان أهم ركن في بناء الحضارة ، وهو عزيز على الله بالاستخلاف في الأرض ، ومن ثم حرص الرسول ﷺ ــ ومَنْ تبعه ــ أن يكتسب ثقة الإنسانية لا بالخداع والغش ، بل بالحرص البالغ على هدايتها والنصح الكامل لها ، فبادله أصحابه ومَنْ آمن به بأرق المشاعر وأنبل الأحاسيس وقدموه على أنفسهم وأموالهم وأولادهم ، وبهذه الثقة المتبادلة تم تشييد الصرح الحضاري لدعوة الإسلام على أساس من الوعي الدقيق والحب العميق والطاعة والولاء لمن له حق الولاء والطاعة ، والخطاب في قوله ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ ﴾ خطاباً عاماً للبشرية جمعاء ؛ لأن رسالته عامة وإن كان فحوى الخطاب للعرب خاصة ؛ لأن الرسالة بدأت فيهم ، وانطلقت من أرضهم فاتخذ الرسول ﷺ من أرض العرب منطلقاً عاماً لهداية الإنسانية جمعاء ، وفي بقاء الأرض كما هو الواقع التاريخي لتلك الدعوة فاتخذ من أرض

العرب نواة لبناء نهضة حضارية عالمية ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ... الآية ﴾ الأعراف ١٥٨ .

فهي بذلك رسالة ذات أفق عالمي .

ثانياً : تأمل قوله ﷺ ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ ﴾ يتضح لك أن القيادة الحضارية لا تكون ذات أثر فعال في دنيا الناس إلا إذا كانت ربانية على شكل رسالة سامية تحمل أزكى التعاليم عن رب الناس وخالقهم ، وبذلك تتوفر لها دواعي الثقة ، وتتضح أمامها معالم الطريق وتتجلى منهج الإصلاح وتقبل البشرية منها كل ما تنقله عن الوحي الإلهي .

وتتميز مناهج الأنبياء والرسل ــ دعاة الحق ــ بمقدرتها الفذة على تغيير النفس الإنسانية في داخلها أو في خارجها ؛ لأن النفس إذا زكت من الداخل استطاعت أن تُبني من الخارج وأن تنشر الصلاح والإصلاح في البيئة التي تحيا فيها ، وعندما يتم بناء النفس منن الداخل ــ على أساس العقيدة والشريعة والقيم الأخلاقية ــ فإنها تغدو أصيلة ذات صبغة فطرية لا يعكر صفو نقاوتها غبش أو كدر من إفك البشر ، فهي إذن ثابتة على ما اعتقدت ، تتلون ولا تتغير ولا تتقلب تبعاً لخيالات البشر وأوهامهم وأهوائهم ، وهذا هو المنهج التربوي الحضاري لتكييف النفوس وطهارة القلوب وربطها بالعقيدة الحقة ؛ لينشأ عن ذلك قوة تهيمن على وساوسها وتفاوت اتجاهاتها ، فكانت دعوة الإسلام ضرورة حضارية لصلاح الإنسان الفرد ، وبصلاحه عم الصلاح والإصلاح على أمة بأسرها وضرورية لواقع الكون والحياة والأحياء ، فانطلقت في مسيرتها الحركية تصلح الفاسد ، وتقوّم المعوج ، وتنشئ المدنية والتقدم بما تضمنته من

عقيدة وشريعة وقيم مبتدأة بصلاح الإنسان ، فهو نقطة البداية ، ومنتهية بتقديم سبل الصلاح والإصلاح لواقع الأحياء جميعاً ، بل العالم بأسره .

ومن ثم لزم في عملية البناء الحضاري أن نبدأ بتقويم الإنسان ، ولا يتم ذلك إلا بمنهج الله ﷻ الذي استودعه كل ما تحتاج إليه البشرية لصلاح حالهم ومآلهم ، ودنياهم وآخرتهم لا الحضارات الأرضية المزعومة ، فهي حين تضع تنظيماً أو تقنيناً يتسم بالجزئية لا الشمول ولا العموم ، ومن ثم فنظرتها في بناء حضارتها واهمة ؛ لأنها ــ أيضاً ــ لم تستطع بناء الإنسان الحضاري ، وإن ادعت إلى ذلك فلِمَ يهرع للانتحار بعد ما كفلت له كل وسائل الراحة والدعة ؟!! على نحو ما سيأتي من شهادات من كنه أنفسهم هم .

فكلمة رسول كما جاءت في الآية الكريمة توحي بما سلف لأنها تحدد :نهج العمل الحضاري ، وهو منهج رباني لا وضعي ، والرسول لا يقود البشرية من تلقاء نفسه أو ذاته ، وإنما يقود البشر وفق منهج الله ﷻ .

وتوحي الكلمة ــ أيضاً ــ بالثقة ، وأي ثقة أسمى من الثقة في رسول رب العالمين وخاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ .

وحين تتم الثقة يتم النفع ويحدث التغيير ، ويوم تنعدم الثقة فلا أمل في إصلاح مهما كثرت الدساتير وتنوعت الأنظمة والقوانين .

وتوحي ــ أيضاً ــ بالبصيرة في الإصلاح ؛ لأن مقنن المنهج رب العباد، فلابد وأن يكون مستوعباً لكل احتياجات البشر ومتطلباتهم في واقع كونهم وحياتهم وأنفسهم محققاً لهم السعادة لا في الدنيا فحسب بل في الدنيا والآخرة .

كما توحي الكلمة ــ أيضاً ــ بضرورة الطاعة والولاء والالتزام ، والخضوع لهذا المنهج ، وإلا فلمن يتم الخضوع والانقياد والولاء ؟!

لقد جرب الإنسان الأنظمة البشرية فأودت به إلى البوار والهلاك ، فجدير به أن يولي وجهه قبل المنهج الرباني الحضاري الذي يكفل له ولسائر الأحياء السعادة في العاجل والآجل .

ثالثاً : وتأمل معي قوله ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ ولنتدبر إيحاءها ، فماذا تعني ؟ يقول أبو السعود في تفسيرها : " من جنسكم ، عربي قرشي مثلكم ، وقرئ بفتح الفاء : أي أشرفكم وأفضلكم "

ويقول الشيخ توفيق سبع في هذه الآية : " هذا تكريم للإنسانية أي تكريم ، وتقدير لخصائصها ورحمة حانية عليها ، ونعمة سابغة لا يمكن وصفها بحال ، ذلك أن القيادة الحضارية لم تجئ غريبة على البشرية ولا بعيدة عنها ، وإنما جعلها الله رسولاً من نفسها ، ونبياً من جنسها ، تعرف حياته كلها وتقدر فضائله جميعها ، وتراه رأي العين ، وبما يتحلى به من مكارم ويتصف به من صفات ، كما أنه ﷺ يعرف طبيعة البيئة التي وُلد ونشأ وتربى فيها بأبعادها وتقاليدها ولغتها ولهجاتها وما تتسم به هذه البيئة من صفات وأخلاق ، والبيئة قد شهدت له بصفات الكمال وأنه منزه عن كل نقص ، فإذا جاءهم هذا الذي عرفوه وألفوه رسولاً من رب العالمين استأنسوا به واطمأنوا إليه وتقبلوا دعوته .

وكلمة ﴿ من أنفسكم ﴾ بضم الفاء تحمل معنى التعانق والتمازج والوحدة، فهو قطعة منهم وبضعة من نفوسهم ، ومن ثم فهو لن يغرر بهم ولن يخدعهم ، ولن يضلهم ، وهل يخدع الإنسان نفسه ؟!

وإذا كانت الوشائج متينة والروابط أصيلة فلن يطول بحثهم عنه ولا تعرفهم عليه ولا يجهلون منزلته ، وكانت حكمة الله ﷻ أن يرسل الرسل من جنس أقوامهم ، إنه الرفق بالبشرية على امتداد التاريخ حتى لا تتورط في الضلالة ، ومن هنا كان لابد أن تكون القيادة الحضارية من قلب المجتمعات التي تعمل فيها لا أن تكون طارئة عليها أو دخيلة ؛ لأن ذلك أدعى إلى النفرة منها وعدم الانقياد لها ، أو على الأقل فإنه يدعو إلى تكلف المشاق واتساع الهوة بين الداعي والمدعو في البحث عن الهوية القيادية وأخلاقها حتى يمكن الاستمالة والاستجابة لها ، وإذا كان الرسول عربياً والقرآن عربياً فإن مجال دعوته وساحة حضارته هو العالم بأسره، ولا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى والعمل الصالح ، ولن تستطيع أية حضارة بشرية أن تدعي مجرد ادعاء بأنها عالمية ؛ لأنها تتهم فوراً بالإسراف والجهالة والادعاء ، إذ كيف تجترئ على أن تدعي لنفسها وضع منهج حضاري يلائم الحياة كلها والأحياء جميعاً ؟

ويوم يتم للبشرية خضوعها وانقيادها وفق دعوة الإصلاح والصلاح الممثلة في الإسلام ، ويوم يتم للإنسانية تنفيذ هذا المنهج والطاعة والولاء له فسيتم لها لا محالة تحقيق السمو الحضاري على سائر المدنيات المزعومة والمشبوهة .

ثم إن كلمة ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ تسع كل العواطف الإنسانية النبيلة التي تمنح الثقة في الداعية وتجذب القلوب نحوه وتعطف الأفئدة عليه وتستميل إليه ،

إنها بهذا التصور كلمة ذات حساسية عاطفية ترمز إلى فضل الله على الإنسانية وتحفز إلى حسن الاقتداء والامتثال ، فهو ﷺ أعلم بطبائع النفوس وخبايا القلوب ، فبعث إليهم من يزكيهم ويطهرهم ويحنو عليهم ويشفق بهم ويدعوهم لما تصبو إليه آماله ؛ لأنه يعلم بالسعادة في الدنيا والآخرة لمن تبعه ، والضلال والبوار لمن ضل سبيله واتبع سبيلاً غير سبيل المؤمنين ، والقراءة ﴿ مِّنْ أَنفَسِكُمْ ﴾ بفتح الفاء تعني : أي أنفسكم من النفاسة ، أي أن الرسول ﷺ من أنفس القوم وأشرفهم وأفضلهم ، وهذا حق ، وإنه ليومئ مع ما سبق بأهم الخصائص والسمات التي يجب أن يتحلى بها القائد الحضاري لقيادة أمته إن كان يبغي لها الرقي والتقدم والمدنية والحضارة ، ومن ثم لزم أن يكون القائد الحضاري قدوة عملية وعلمية لأمته لتتعلق بها القلوب ، وتألفها النفوس وتتمثلها في العمل والسلوك ، وتقلدها في كل ما يصدر عنها من قول أو فعل أو تقرير أو ..

ولعل هذا هو السر في إخفاق السواد من القيادات البشرية ؛ لأنها لم تكن على مستوى القيادة الحضارية اللازمة لأي أمة ، ولن تبلغ حضارة أي أمة كمالها إلا إذا سلكت منهجه القيادي في الدعوة إلى الله ﷺ .[٥٧]

رابعاً : وتدبر قوله ﷻ ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ وتلك كلها صفات وسمات تحمل في مطاويها صدق القائد

(٥٧) أنظر : مؤهلات القيادة الحضارية في دعوة النبي ﷺ ــ مقال للباحث تحت الطبع ، والتربية بالقدوة وأهميتها للداعية الإسلامي المعاصر ــ بحث للباحث تحت الطبع .

الحضاري ، وإخلاصه في هداية قومه وحرصه على إيمانهم ورحمته بهم، وشفقته عليهم ، ورقته معهم .

إن الرسول ﷺ في مسيرته العملية للدعوة يحمل من العواطف الكريمة للبشرية ما يجعله دائماً يضن بها على الحرج ، ويحول بينها وبين المشقة، إنه لا يدفع بها إلى المهالك والحروب ، إلا إذا أكرهت عليها ــ ليتخلص منها كما هو شأن الحضارات البشرية المزيفة .

والآية تؤكد مدى حرص الرسول ﷺ على أمته ، وكان رؤوفاً رحيماً بالإنسانية جمعاء حرصه على نفسه بل يؤثر الرأفة والرحمة بالإنسانية على ذاته ، إنه حريص على أمته وسلامتها لا يدفعها لحروب شيطانية بل لإحقاق الحق وإزهاق الباطل ويمضي معها قدماً إلى ساحة المعارك وميدان الجهاد لتتعلم الأمة منه الحرب والسلم معاً ، كما أنه ﷺ كان حريصاً على استنقاذ البشرية من العنت والإرهاق والمذلة لغير الله ﷻ ، وأي عنت أشق من أن تمتهن كرامة الإنسان ، وتحتقر آدميته ، وتستعبد ذاته فيسجد لبشر نظيره أو شجر أو حجر ، وهذه مأساة تهدد البشرية في قيمتها الرفيعة التي منحها الله ﷻ إياها وهي ارتباط الإنسان بخالقه وتوثيق العلاقة بينه وبين الله ﷻ ويتحرر من العبودية لغيره ــ جل شأنه ــ أياً كانت هذه العبودية لهوى أو لنفس أو لشيطان أو لشجر أو لصنم أو سائر الطواغيت التي عبدت من دون الله فأودت بهم إلى العذاب الأليم لا محالة في الدنيا والآخرة .

* وتوحي كلمة ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ كما جاءت في الآية الكريمة بمدى المعاناة التي عاناها الرسول ﷺ في مسيرته الدعوة لهداية قومه وتحمل أشد الأذى وكافة ألوان العذاب في توصيل كلمة الوحي الإلهي للبشرية جمعاء ، وهذا ما يؤكد أن القائد الحضاري ينبغي عليه أن يقوم بالمهام التي كلف بها من قبل أمته ، أداء للأمانة ، وتبليغاً للرسالة ، وهذا ما عنَتْهُ الآية في المعاناة الشاقة والتجربة القاسية التي مارسها الرسول ﷺ في سبيل إرشاد أمته لأن هذا الحرص يستتبع بذل أقصى الطاقة لتحقيق الهدف المنشود ، ونشهد بأن الرسول ﷺ قد بلَّغ الرسالة وأدى الأمانة ، ونصح الأمة وكشف الغمة وترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك ، فكانت دعوته ﷺ نواة مباركة للحضارة العالمية والمدنية الشاملة التي عمت أرجاء الكون بأسره ، وجاءت دعوته تحمل مدنية العالم كله ، مراعية واقع الكون ، وحضارة الحياة كلها ، ورقي البشرية جمعاء (٥٨) فكان تمدين العالم مناط رسالته وجوهر دعوته وأساس هدايته ، وهل يتم ذلك إلا بقيادة حضارية رشيدة تبلغ أنقى وأصفى كمالها في شخصية الرسول ﷺ ومنهج دعوي كامل بلغ أقصى كماله في سائر ما شرع من عقائد وشرائع وقيم ، تتجلى حضارة الدعوة واضحة فيما يلي .

(٥٨) أنظر لمزيد من الاستفادة : قيم حضارية في القرآن الكريم ـ توفيق سبع ج٢ص٥-٣٦ .